خصائص المثل القرآني

للأستاذ المرحوم أبي بكر المريني

1 ـ الاسلوب أو فنية التعبيـــر :

أ ـ طريقـــة العـــرض :

ان اي شيء مهما كان لا بد له من طريقة لعرضه على الناس ، وهذه الطريقة هي التي تضمن له النجاح او الاخفاق . ومن خصائص المثـــل القرآني ان طريقة عرضه ليست من وضع البشر . بل هي من خالق البشر جميعا ، والعالم الخبير بما يجيش في صدورهم ، وما يدور في خيالهـــم مهما اتسع . وما توسوس به نفوسهم مهما اختلفت مشاربهم . ولذلـــك كانت طريقة عرض المثل القرآني فريدة من جانب عارضها وهـــو الحـــق سبحانه وتعالى . وفريدة من جانب آخر لانها لم تسبق أبدا . واذا كانت المخلوقات جميعها متقنة الصنع منه عز وجل فكيف بكلامه سبحانه وتعالى « ومن اصدق من الله قيلا » (1) و « وله المثـــل الاعلـــى في السموات والارض » (2) .

ب ـ التشبيـــــــه :

من المعلوم ان التشبيه ـ كما تعارف عليه علماء البلاغة ـ اسلوب من اساليب البيان . فهو الذي يوضح الغامض ، ويجلي المعمي ، ويقرب الى الافهام المعنى البعيد مهما كان وكيفما كان ، لانه منتهى الايضاح ، باعتباره

---

(1) النســـاء : 123 .
(2) الـــروم : 27 .

الافهام المعنى البعيد مهما كان وكيفما كان ، لانه منتهى الايضاح ، باعتباره اللغات لانه في الدرجة الاولى من التعبير والبيان وبالاخص في اللغة العربية ، « فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه الطف كان الشاعر بالشعر اعرف ، وكلما كان بالمعنى اسبق كان بالحذق اليق » (3) .

وهو : « أشد ما تكلفه الشاعر صعوبة لما يحتاج اليه من شاهد العقل واقتضاء العين » (4) ولانه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك ما بين المغرب والمشرق ويجمع بين المشئم والمعرق ، وهو يريك في المعاني بالاوهام شبها في الاشخاص الماثلة ،والاشباح القائمة ، وينطق لك الاخرس ، ويعطيك البيان من الاعجم ، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الاضداد فياتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين » (5) .

وقال المبرد في الكامل : « لو قال قائل ان التشبيه هو اكثر كلام العرب لم يبعد » (6) ،ولما كان التسبيه على هذه المكانة فان القرءان الكريم ضم كثيرا من التشبيهات البليغة وهي من اساليبه في تبليغ الدعوة الى الناس بعرض الصور والمعاني في انصع حلة ، وبايضاح متناه لا يعسر معه ادراك مقاصدها ، واستيعاب مراميها على اي كان .

وقد اخذت الامثال القرآنية (7) حظها الوافر من هذه التشبيهات فكانت اداة فعالة في تقريب الصور والمعاني الى الاذهان . ولم تكن التشبيهات في حد ذاتها غاية بل كانت المقارنة الناتجة عنها هي المطلوبة ليقف الضال على حقيقة ضلاله . والمقتدى على صواب اختياره ، ويلمس كل منهما جدوى عمله ، وحصيلة سعيه لئلا يتطرق اليه الشك ،ولا يمكن جحوده الا من متعنت مغرق في الكفر .

ومثال ذلك قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (8) .

---

(3) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص : 58 .
(4) العمدة لابن رشيق ج : 1 – ص : 194 .
(5) أسرار البلاغة للجرجاني ص : 103 .
(6) الكامل للمبرد ج : – ص : 69 .
(7) انظر آيات الامثال التشبيهية في الفصل الاول من هذا الباب .
(8) الاعراف : 176 .

جـ ــ الأنيـــــــــــاس :

القياس في الامثال القرآنية من أبرز خصائصها ، فهو يدفعـــك الى الحكم على الشيء او ضده بما لا يدع أمامك مجالا للتردد . ما دام القياس يفضي الى أن حكم الشيء حكم نظيره . وأقيسة الامثال القرآنيـــة كلهـــا صحيحة وتتنزه عن أن يكون فيها قياس فاسد . فهي اذا قاست احيـــاء الموتى على أحياء الارض فانها تعطيك الدليل القاطع على صحة هذا القياس، واذا قاست حبوط عمل الكافر بالرماد الذي تذروه الرياح العاصفة فانهـــا تضع أمامك الدليل الذي لا يحتاج الى مناقشة وهذا في جميـــع الاقيسة التي قدمتها الامثال القرآنية .

ومثال على ذلك هذا المثل الذي فيه قياس الدلالة ، قال الله تعالى: « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تـــراب ثـــم قال له كـــن فيكـــــون » (9) .

د ــ القصـــــــــة :

القصة لون من الوان التعبير ، فهي تنقل اليك في الزمان والمكـــان حادثة ما او واقعة ما تقف فيها على الحقيقة وتستخلص منهـــا الـــدرس والعبرة ، وهي تعتمد على السرد والتشخيص وبيان تسلسل الاحداث في الموضوع الذي تتناوله ، وتنتهي بك الى المراد منها .

والقصة تشد السامع اليها لما فيها من مشوقات وتحليل او اخبـــار وعلى القصة مدار أخبار الامم الخالية .

واذا كانت قواعد القصة تقتضي وجود مشكل يدور عليه محورها ، وتتطلب الحبكة في تحريك الاشخاص ، وتصوير الزمان والمكـــان ، ثـــم تنتهي بما يسمى بالعقدة فاما أن توجد لها حلا او تبقى معلقة .

وفي القصة القصيرة اليـــوم مجـــال كبيـــر للمنافسة والمناقشة أيضا ، وبالرغم من أن النقاد لم يصلوا بعد الى تحديد مفهوم القصة القصيرة

---

(9) آل عمـــــــــران : 59 .

فان القرءان الكريم يزخر بهذه القصص المتناهية في القصر ، والجامعة لكل أصول القصة ، بحيث تجد نفسك في ظرف وجيز لا يتعدى الدقيقة أمام قصة قائمة الذات تطرح المشكل وتعالجه ، وتفضي بك الى النهاية الحتمية التي تقتضيها ظروف وشخصيات القصة .

واذا كان الغرض من القصة في القرءان الكريم دينيا بحتا « فهي مسوقة للموعظة والتربية والتوجيه ولكنها مع ذلك تفي بكل مطالب الفن القصصي الخالص » (10) ولكن هذه الموعظة والتربية والتوجيه يسوقها القرءان بصفة غير مباشرة .

والمثل القرآني استخدم القصة كأسلوب لتبليغ الدعوه الى الله ، ولتوضيح الطريق اللاحب ، وانك لتجد فيه القصة التاريخية محدودة في الزمان والمكان والاشخاص ، وتجد فيه « الواقعية » (11) بنماذج بشرية وأحداث تقع كل يوم وفي كل عصر وجيل ، تهدف الى تركيز العقيدة والتأكيد على أن الدين كله من عند الله من عهد نوح الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن أصناف المؤمنين لا تختلف أبدا ، لان المومن الصادق لا يمكن أن يتزحزح عن ايمانه أبدا ، وأن أصناف المعرضين عن ذكر الله أو المناهضين لدين الله ورسله وكتبه ، هم انفسهم تتكرر نماذجهم وأن اختلفت أسماؤهم وأنسابهم وأجناسهم .

ولا تعتمد قصص القرءان او الامثال القصصية على الخيال ولا على الخرافة والاساطير . وهذا يجعل تأثيرها ووقعها في النفوس بليغا ، لانها تبتدىء بعرض الحالة مع كل ملابساتها ثم تنتهي بتعقيب يخدم العبرة المتوخاة من ايراد القصة او المثل القصصي .

وهذه « الامثال القصصية » (12) يلمس فيها المتدبر لها والمتفكر فيها الانتصار للحق ونصر الانبياء جميعا وابطال الشرك والكفر والعمل المحيط بهما . كما يلمس فيها المصير الوحيد للمكذبين الذي هو الهلاك لا محالة في الدنيا والآخرة كما يلمس فيها تثبيت المؤمن على ايمانه ، وتطمينه على مصيره وعمله الذي لن يذهب سدى .

---

(10) منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب ، ص : 227 .
(11) نقصد بالواقعية هنا ، انها نموذج يمكن وقوعه في اي عصر واي جيل .
(12) انظر آيات الامثال القصصية في الفصل الاول من هذا الباب .

كل ذلك في عرض سريع اعجازي الايجاز والتصوير والاسلوب وفيه تعجيز لكل من يحاول النسج على منهجها او محاكاتها .

ومثال على ذلك قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر، فقال لصاحبه وهو يحاوره ، انا أكثر منك مالا واعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال ما أظن ان تبيد هذه أبدا . . . » الى آخر المثل (13) .

هـ ـ الحوار :

والحوار في الامثال القرآنية (14) ليس يراد به الجدل من أجل الجدل ، بل يخدم القضية المعروضة بهدف الوصول الى الاقناع الذي يعتمد على المسلمات والهادف الى افحام الخصم في آن واحد .

فهو حوار هادىء ينطلق من المعرفة لموقع الخصم . والاحاطة برأيه احاطة شاملة . ثم محاورته بالطريقة البسيطة التي لا تترك مجالا للمراوغة والتدليس ، وجعله يصطدم مع الحقيقة التي تبين له فساد الخط الذي يسير في اتجاهه من غير تعنت ولا تعصب في محاورته . بل يتم ذلك في تسلسل منطقي ، وبكيفية يقف معها الخصم ذاهلا ومبهوتا ، لان النتيجة التي ينتهي اليها الحوار حتمية لا يمكن انكارها او جحودها . فاما ان يقر بالندم على ما فات ويتوب وينوب الى الله ، او يلج في عتوه ونفوره لانه لم يطق الهزيمة التي مني بها .

واذا كان الحوار وسيلة من وسائل التبليغ في القرءان عامة وفي الامثال خاصة ، فان الطريقة التي عرض في قالبها هذا الحوار طريقة مثلى تعمل على ترسيخ الايمان في قلوب المومنين وتنفيرهم من ركوب مطايا البطر او الكفر بنعم الله . وتنعى على الضانين سوء اختيارهم للطريق المسدود الذي يصرون على المضي فيه بالرغم من أنهم يعرفون أنهم يمضون الى سوء المصير .

---

(13) الكهف : من 32 الى 44 .

(14) انظر آيات الامثال الحوارية في بداية هذا الباب .

ومثال على ذلك يرجع الى المثل الذي قدمناه كنموذج في القصـــة أعـــــلاه .

و ـ الــوصـــــــف :

ومن خصائص المثل القرآني ومميزاته براعة الوصف (15) للنماذج التي عرضتها هذه الامثال بحيث تجد نفسك امام حالات مجسمة كأنـــك تراها راي العين ، فلا يداخلك شك في صحتها وقوة وجودها .

وهو وصف حي متحرك في مشاهد متلاحقة ، بليغـــة التأثيـــر في النفس . قوية الدلالة ، دقيقة التشخيص باعثة على الاكبار .

فاذا كان وصفا لاشخاص فانه يجسدهم بكلمات او جمل معدودة . ولكنها تفيض بالحياة فترى هؤلاء وكانهم أحياء امامك يمثلون الدور المناط اليهم بكل اتقان ، ويثيرك المشهد أيما اثارة فتكون مع الشخص الموصوف او ضده لان دقة الوصف وبراعته تدفعك الى اتخاذ الموقف الذي يتـلاءم واعتقادك واستعدادك .

واذا كان وصفا لما لا يدرك الوصول اليه كالجنة مثلا فانه يقربها اليك بوصف يدركه عقلك ـ لان عقل الانسان وخياله محدودان ـ بعيدا عن تنميق العبارة وتدبيجها ، بل يصف لك ذلك بما تقع عليه عينك في محيطك بكلمات قليلة ميسرة للفهم والادراك . فتجد نفسك مقتنعا بما أوصلك اليه ذلـــك الوصف الرباني العجيب .

وخاصية الوصف في المثل القرآني فريدة لانها تبعده عن الاطنـــاب وتخدم الغرض الذي من أجله وظف الوصف ولان تركيز هذا الغرض الذي اقتضى الوصف يهدف بالاساس الى جعل الموصف لــــه امـــام الشيء الموصوف وجها لوجه لتحصل الغاية المرجوة من استخدام الوصف ومن هنا يبرز اعجاز القرءان وبلاغته ، وتبقى الحجة قائمة على المنكر والضال .

وبراعة الوصف في الامثال القرآنية لا تكمن في الالفـــاظ ، ولا في القضية أو النموذج الموصوف فحسب بل في توظيـــف هـــذا الوصف

---

(15) انظر آيات الامثال الوظيفية المثبتة في الفصل الاول من هذا البـــاب .

لترسيخ عقيدة التوجيه ، وشهره سلاحا في وجه المضللين الذين عجزوا عن مواجهته نظرا لقوة تأثيره في النفوس وهم في الدرجة الاولى بالاساس.

ز ـ الصور البيانية :

من الامثال القرآنية ما ليس بتشبيه ولا قصة ولا وصف وانما هي صور بيانية (16) جاء بها القرءان لخدمة الدعوة ، وللتشهير بمن يقف ضدها أو يخونها ، وتصويره في وضعية لا يعتمد عليها . وبيان عجزه وتصوره في الحملة التي يخوضها ضد هذه الدعوة او لشجب عمل لا يتلاءم والمبادىء التي جاءت دعوة الاسلام لنشرها وتعميمها بين الناس .

وقد عرضت هذه الصور البيانية عجز الاولياء الذين يدعوهم المشرك عن الاستجابة له ونصره بل عجزهم حتى على نصرة أنفسهم ، كما عرضت صورة حية للمعرضين عن سماع الدعوة وسوتهم بالانعام بل جعلتهم أضل منها ، وسوتهم أيضا بالاموات في القبور بالرغم من أنهم أحياء على الارض يرزقون . كما صورت فرعون وتحديه لله وكيف أخذه الله أخذا وبيلا وجعله مثلا وآية (17) لمن خلفه الى يومنا هذا . كما صورت المتخذ هواه الهه وبينت ضلاله .

وصورت مشهدا حيا للمكذبين بآيات الله ، وكيف يستحيل عليه دخول الجنة يوم القيامة تصويرا نابعا من النفس حتى تتيقن هذه النفس من النتيجة التي رسمها المثل : « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط، وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد . ومن فوقهم غواش . وكذلك نجزي الظالمين » (18) .

ان تقديم هذه الاستحالة في دخول المكذبين للجنة بهذه الصورة البيانية جعلها أبلغ من كل وصف وتشبيه وقصة . وفي هذا المثل تسلسل بياني معجز ذلك لانه رتب استحالة دخول الجنة على التكذيب والاستكبار، وعقب عليها بالجزاء المنتظر فجعل لهم جهنم مهادا ومن فوقهم غواش ،

---

(16) انظر آيات الامثال الوصفية بالفصل الاول من هذا الباب .
(17) لقد شاهدت جنة فرعون في متحف القاهرة .
(18) الاعراف : 40 ـ 41 .

لانهم ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بما كانوا يقومون به من تضليل ومناوءة للرسل ودعـــوة الحـــق .

ح ـ التصويـــر الفنـــي :

يقول سيد قطب : « التصوير الاداة المفضلة في أسلـوب القرءان ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث ألمحسوس والمشهد المنظور ، وعن النمـوذج الانسانـــي والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحهـــا الحيـــاة الشاخصة او الحركة المتجددة ، فاذا المعنى الذهني هيأة او حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة او مشهد ، واذا النموذج الانساني شاخص حـــي . واذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة . فاذا أضاف اليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل ، فما يكاد يبـــدأ العرض حتى يحيل المستمعين الى نظارة وحتى ينقلهم نقلا الى مسرح الحـوادث الاول ، الذي فيه وقعت او ستقع حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات وينسى المستمع ان هذا كلام يتلى ومثل يضرب ويتخيل انه منظر يعرض، وحادث يقع فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهـــذه سمـــات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مـع الحوادث وهذه كلمات تتحرك بها الالسنة فتنم عن الاحاسيس المضمرة .

انها الحياة هنا وليست حكاية الحياة .

ما ذكرنا أن الاداة التي تصور المعنى الذهني والحالـــة النفسيـــة وتشخص النموذج الانساني او الحادث المذوي انما هي ألفاظ جامـدة لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر ، أدركنا بعض أسرار الاعجاز في تعبيـــر القرءان . وهو تصوير حي متنوع من عالم الاحياء لا ألوان مجرده وخطوط جامدة تقاس الابعاد فيه المسافات بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليهـا الحيـــــاة » (19) .

---

(19) التصويـر الفنـي في القرءان ، سيـد قطـب ص : 35 .

ط ـ الدقة :

فاذا كان المثل القرآني يمتاز بخاصة التصوير الفني ، فان هذا التصوير يمتاز بالدقة في رسم النماذج التي يقدمها بعيدا عن الاغراب والغموض والتعقيد ، انما يعتمد على الصورة المحسوسة فيجليها بأوصافها الملفتة للنظر ولكنها تغيب عن الاذهان .

فالذي يتخبطه الشيطان من المس حركاته عادية ، وهمهماته عادية مألوفة لدينا ، ولكن دقة تشبيه المثل القرآني للذين ياكلون الربا بالذي يتخبطه الشيطان من المس ، تجعل صورة هذا المتخبط تقفز الى الذهن بكل معطياتها وتفاصيلها في آن واحد . وتتضح في الآن الغاية من ضرب المثل .

وكذلك عندما يتعلق الامر بالعنكبوت . فهذه الحشرة الحقيرة توجد في كل بيت . ونظرا لحقارتها ووهن بيتها لا يلتفت اليها في البيت . لانها من الضعف بمكان ، ولكن عندما استعملت هي وبيتها في بيان ضعف المشركين وأوليائهم فحينئذ يستحضر الذهن هذا البيت بكل تفاصيله . بهندسته العجيبة ، والعنكبوت في وسطه فيتبين للذهن أنه رغم الهندسة العجيبة فانه لا شيء . والحشرة التي تصنعه لا قيمة لها خاصة اذا علمنا أن أنثى العنكبوت هي التي تصنع هذا البيت الواهي فهذه زيادة في الضعف وزيادة في لفت النظر الى هذه الدقة المتناهية في التعبير والتصوير .

وكذلك الامر حينما يتعلق بالحبة التي تنبت سبع سنابل ، وبالمشكاة التي فيها مصباح . وبالصفوان وغيره ، مما تزخر به الامثال القرآنية تنم كلها عن الدقة في التفصيل الموجز وهذا هو الاعجاز .

ومثال ذلك قوله تعالى : « الله نور السموات والارض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب ذري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدي الله لنوره من يشاء » (20) .

---

(20) النور : 35 .

ي ـ الواقعية :

ومن فنية التصوير والتمثيل ان يكون مستمدا من الواقع لان الخيال لا يغني عن التصور شيئا ، فما يحيط بالانسان في حياته اليومية وينفعل معه في غدوه ورواحه في بيته وحله . هو الذي استمدت منه الامثال القرآنية النماذج التي قدمتها لبني الانسان . صورا انتزعتها من بيئته الطبيعية والاجتماعية ، وقدمتها له لبيان الحق ودحض الكفر ، فلا يسعه انكارها ولا استحالة تصويرها ، اذ يلمسها لمسا وهو يراها رأي العين شاخصة أمامه ، فهي تنطلق من حياته ومحيطه وذاته .

فمثل الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون ينبض بالواقعية ، ذلك أن هذا العبد المملوك لعدد من السادة يجمع كل المتناقضات الموجودة بين مالكيه ، وتظهر عليه وبه اختلافاتهم ونزاعاتهم وتضارب رغباتهم فيه كل مالك على حدة ، وهو في حيرة وتعب لا يقدر ان يخدم أحدا منهم باخلاص وقوة . وهذه هي الصورة التي انتزعها المثل القرآني من الواقع وطبقها على الذي يخدم عددا من الآلهة ، المال والرؤساء والهوى والاصنام وما الى ذلك من النوازع الشاذة .

وبالمقابل تجد عبدا مملوكا لسيد واحد يتمتع بالقوة والقدرة على خدمة سيده في طمانينة وراحة بال وضمير وتجده دائما مشدودا اليه متفانيا في خدمته ، وهو ما ضربه الله مثلا للمومن الذي يعبد الله الواحد الاحد .

وهذه الواقعية من خصائص المثل القرآني ومن أبرز مميزاته .

ك ـ الاسلوب :

ان الوليد بن المغيرة وهو من اشرف قريش وأعلمهم بلغتها عند ما سمع شيئا من القرءان رق قلبه رغم انفه حتى قالت قريش صبأ والله الوليد . ولم يجد بدا من القول لابي جهل : « فو الله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر وبرجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله ـ أي محمد صلى الله عليه وسلم ـ شيئا من هذا . والله ان لقوله لحلاوة وأن عليه لطلاوة . وانه ليحطم ما تحت ، وانه ليعلو وما يعلى »

ولما ألمح عليه أبو جهل في أن يقول فيه ما يطفي غضب قريش قال له دعني أفكر ، فلما فكر قال : « ان هذا الا سحر يوثر ، اما رايتموه يفرق بين الرجل واهله ومواليه » .

ويصور القرءان هذه الحالة وهذا المشهد للوليد بن المغيرة : « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر » (21) .

فهذا القرءان ليس شعرا ولا نثرا ، ولا يمكن ان نلتمس له الالقاب في دائرة ما اصطلح عليه البلاغيون . فهو قرءان عربي مبين . وليس في حاجة الى تصنيفه لانه متميز عن اساليب القول كلها ، لانه القرءان كلام الله . صاغه في قالب فريد يعجز عن محاكاته البشر والجن لو اجتمعوا له .هذه خاصية في التعبير القرآني الذي لا نملك الا أن نقول بأنه البلاغة في التعبير والتأثير والتصوير .

ل ـ الابداع :

واذا كان « في سور القرءان جمال العرض وقوة الاداء . وايقاع العبارة وايحاء الاشارة على نحو فريد » (22) فان ذلك يدخل فيه المثل أيضا لانه جزء من القرءان الكريم وأحد وجوهه التي نزل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمثل القرآني نمط خاص متميز عن غيره من الامثال ، لانه لم يسبق ان عرض نسقه احد . فالله هو مبدعه وواضعه ومن هنا جاء تميزه عن غيره من الامثال ، واذا قلنا الابداع فاننا نقصد بأنه فريد في طريقة عرضه . وفي تمثيله وفي دقته وفي انتزاعه صوره ، وفي أسلوبه وفي مفهومه ، وفي الغرض الذي وضع من اجله وهذه خصائص يتميز بها المثل القرآني ، ولا يمكن ان يبدع مثله أحد لان الله سبحانه وتعالى حسم فى هذا الامر حيث قال عز وجل : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرءان لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (23) .

(21) المدثر : 18 ـ 24 .
(22) التصوير الفني في القرءان ص 23 .
(23) الاسراء : 88 .

اذا فابداع أسلوب على النمط القرآني مستحيل قطعـــا على البشر وغيرهم ولو اجتمعوا له .

م ـ اليســــــــــر :

عند ما نقول اليسر فاننا نقصد به المثل برمته في صوره ونماذجـــه والفاظه ، فانه يقدم دائما في الفاظ سهلة لا تحوجك الى قامـــوس ولا الى لغوي ، فهي واضحة الدلالة في غنى عن اي مجهود عقلي او فلسفي لهضمها واستيعابها ، تعتمد على البساطة والسلاسة والعذوبة ، ومن هنا كانـــت أمثال القرءان برمتها ميسرة للفهم ، لان القرءان ضمنه الله تعالى اساليب الدعوة على اختلافها ـ ومنها المثل ـ ولذلك جاء بينا وواضحـا وميسرا وسهلا ، مما جعله ذا تأثير فعال في تبليغ الدعوة .

ن ـ الاستمـــــــــــرار :

والمثل القرآني يوصل التعاليم الالهية الى الافهام في يسر لا عنـت فيه ، وفي دقة لا خلل فيها ، وواقعية بعيدة عن الخيال ، وبتعبئـــة لكـــل حواس الانسان وملكاته بصفة شاملـــة .

والمثل القرآني لا يوجه الى طبقة معينة فهو موجه للناس كافة ومن مختلف المواقع . ولكن لا يمكن استيعابه بكيفية شاملة الا مـــن طـــرف العالمين والمراد بالعالمين الذين يميزون الخبيث من الطيب ويفرقون بين الحق والضلال .

ومن خصائص المثل القرآني ومميزاته كذلك أنه لا يختص بجيـــل أو عصر . فهو يحمل في طياته الاستمرارية لانه منتـــزع من حيـــاة الانسان ويعرض نماذج يمكن أن تتكرر عبر الاجيال ، وان اختلفت مواقعها في الكفر أو الايمان . وفي البلاد والاجناس .

2 ـ استخـــدام البيئـــة :

يقول احمد أمين في فجر الاسلام : « يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان ، البيئة والطبيعة ، ونعني بها ما يحيط الشعب طبيعيا مـــن

جبال وانهار وصحراء وغير ذلك ، والبيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالامة من نظم اجتماعية كنظام دولة ودين واسرة ونحو ذلك ، وليس احد العاملين وحده المؤثر في العقلية » .

وعند المسعودي في مروج الذهب : « ذكر ذوو الدراية ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الارض كتب الى حكيم من حكماء العصر : انا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد . ونريد ان نتبوأ الارض ونسكن البلاد والامصار فصف لي المدن واهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية في سكانها » .

فكتب اليه ذلك الحكيم : « اعلم يا امير المؤمنين ان الله تعالى قد قسم الارض أقساما شرقا وغربا وشمالا وجنوبا (25) .. الى أن قال : وأما الجبال فتخشن الاجسام وتغلظها وتبلد الافهام وتقطعها وتفسد الاحلام وتميت الهمم لما هي عليه من غلظ التربة ومتانة الهواء وتكاثفه واختلاف مهابه ومتصرفاته .

والاخلاق والصور يا أمير المومنين تناسب البلد وتحاذيه وتقاربه وتوافقه وتضاهيه ، وكل بلد اعتدل هواؤه وخف ماؤه ولطف غذاؤه كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه . وتشاكل ما عليه أركانه وما أسس عليه بنيانه . وكل بلد يزول عنه الاعتدال انتسب أهله الى سوء الحال » (26) .

ومعلوم أن طبيعة بلاد العرب من القساوة بمكان وأن طباعهم كانت جافية وبيئتهم الاجتماعية رغم تماسكها فقد كانت منهارة بالاحقاد والضغائن والحروب والعادات والمعتقدات الفاسدة الدالة على تبلد الافهام وفساد الاحلام ومن هنا كانت معجزة الاسلام الكبرى حيث جعل من هؤلاء القوم نواة خير أمة أخرجت للناس تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله وتقيم حضارة الانسان في كل أنحاء المعمور .

---

(24) فجر الاسلام ص : 44 .
(25) مروج الذهب ج : 2 ــ ص : 61 .
(26) نفس المصدر ص : 63

وجعل الله خاتمة رسالاته بلغة هؤلاء القوم ليهذبها ويطوعها ويجعلها تستوعب كل المعارف الانسانية التي علمها الله تعالى لسيدنا آدم عليه السلام .

واذا كانت البيئة هي التي توجد اللغة ، وتكون مادتها وتعين مسمياتها والفاظها ، فلغة العرب مأخوذة من بيئتهم التي عاشوا عليها فتأثروا بما فيها من حيوان ونبات وماء وارض وسماء وغيرها (27) فان القرءان الكريم خاطب العرب بلغتهم وعمل على تغيير مدلولات كثير من الفاظها واخضعها للمفهوم الاسلامي . وانتزع دلالته من بيئتهم التي تحيط بهم طبيعية او اجتماعية ولكن بطريقة تجعل خطابه للناس كافة مهما اختلفت طبيعة أرضهم ومناخها ، ومهما تباينت بيئاتهم الاجتماعية وعاداتهم ومعتقداتهم لانه يخاطب النفس البشرية . والنفس واحدة من حيث موقفها من عقيدة التوحيد . فاما مومنة ، واما كافرة فاجرة .

وهكذا نرى المثل القرآني استخدم البيئة التي خاطبها بحيث جعلها نموذجا لمنتهى الضلال واستخدم الطبيعة المحيطة بهذه البيئة لانها جزء منها ومن أحلامها لان الطبيعة لها تأثير على فكر الفرد أينما كان .

وظاهرة استخدام الطبيعة في القرءان واهتمامه لا تنحصر في آيات الامثال ، بل هي من ثنايا القرءان ، مع ان العرب في أشعارهم وأدبهم لم يحتفلوا بالطبيعة الاى في النادر ، وفي وصف لا يكاد يتعمق الطبيعة الا قليلا (28) ولذلك فان القرءان عمل على ايقاظ النفوس من تبلدها لتتفتح على الحياة ، فحرك الحواس للتجاوب مع آيات الله فترقى النفس في معارج الصلاح والاصلاح لتحقق ذاتها ، وتؤدي رسالتها التي من أجلها اخرجت من العدم الى الحياة .

فالقرءان لا يكتفي بتوجيه النظر الى مجال الطبيعة المباشر ، وانما يعبر بمشاهدة الطبيعة عن المعاني النفسية والفكرية والاجتماعية التي لا يخطر على بال بشر ان يستخدم الطبيعة للتعبير عنها وتوضيحها (29) وهذا ما عبرت عنه امثال القرءان تعبيرا ميسرا واضحا كل الوضوح ، لان الطبيعة

---

(27) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ص : 57 .
(28) منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب ص : 112 .
(29) نفس المصدر ص : 224 .

ماثلة للعين في كل مكان من بقاع الارض . تحت حواس الانسان الذي اذا أراد ان يشبه استحضر ما في خياله من مظاهر الطبيعة واقتطع منها تشبيهه . وان كان التشبيه لا يعتمد فقط على الطبيعة بل يؤخذ أيضا مما يجري في البيئة من أفكار وعوائد وتقاليد وعادات .

وهكذا نجد أن أمثال القرءان استخدمت الماء والنبات والحيوان وحتى الجماد لرسم لوحات تعبيرية عن الحياة والموت والبعث ، والعمل المحيط والسعي النافع ووحدة الله والدين والرسل . واستخدمت الانسان وبعض معتقداته لبيان ما هو عليه من ضلالة ، وما هو عليه من هدى بطريقة لا يفي بفرضها اللفظ المباشر لانها تحول المعنى البعيد المنال والمجرد الى معنى يفيض بالحركة والحياة .

أ ـ المـاء :

الماء ـ عنصر الحياة سواء في الصحراء أو غيرها لان الله تعالى يقول : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (30) وقد يكون عنصر الحياة من آخر ـ والله أعلم ـ لان كثيرا من الآيات تحدثت عن أنهار الجنة الجارية السلسبيلية ، ومياه جهنم من مهل وحميم وغسق .

والامثال القرآنية حفلت بتشبيهات كثيرة اعتمدت الماء باعتباره أساس الحياة ، وذلك لرسم سبيل الهدى والرشاد ، وتوضيح طرق الضلال ولتبين الرشد من الغي واستعملت الماء بكل أنواعه عذبا ومرا حقيقةوسرابا صيبا وسيلا ، وابلا وطلا ، نهرا وبحرا .

فقد جاء التشبيه للحياة الدنيا بالماء من السماء وما ينتج عنه من اخصاب يبعث على الزهو والبطر ، او اتلاف يبعث على الحسرة والندم ، او ما يتوهم انه واقع وهو ليس بواقع .

« انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » (31) و « كباسط كفيه للماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » (32) بالنسبة لتبيين الضلال وأعمال

---

(30) الانبيـاء : 30 .
(31) يـونس : 24 .
(32) الـرعـد : 14 .

الكفار التي هي « كسراب بقيعه يحسبه الضمآن ماء » وكلاهما متوهم وعملها معا هباء .

والسيل الذي يميز الخبيث من الطيب « فاحتمل السيل زبدا رابيا .. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »(33) وحيرة المنافقين وضلالهم واضطرابهم « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » (34) وأهل الضلال المنغمسين في جهالتهم « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » (35) .

وأما انهار الجنة فقد وقع التمثيل لها في سورتي محمد الآية 15 والرعد الآية 35 ، وهذه خاصية أمثال القرءان تنفرد بها عن غيرها ، لان امثال القرءان ذات طابع متميز ، ومن ثم كانت ذات تأثير على النفوس كبير .

ب ـ النبات :

كل ما تخرجه الارض من عشب وكلأ وزرع وثمار وأشجار جزء من الارض والطبيعة وهذا الذي تخرجه الارض يشد الكثيرين اليه ممن تفويهم الحياة الدنيا ، وان منه ما فيه فائدة ، ومنه ما فيه مضرة ، ومنه ما يهيج ثم يصير حطاما ، لذلك كان استعمال النبات في الامثال القرآنية اقرب وسيلة لتبيان الحق وتعزيزه ، وتوضيح الباطل وازهاقه ، ولتقريب صورة البعث الى الاذهان ، وتأكيد قدرة الله على كل شيء : الخلق والافناء والبعث .

وهذه العمليات الثلاث لا يستطيع مخلوق مهما أوتي من البلاغة والبيان أن يجمعها في كلمات معدودات لا تتعدى السطرين أو الثلاثة في سورة حية متكاملة متسلسلة الحلقات واضحة المعالم منطقية العرض ودامغة الحجة . يقول الله تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، والبلد

---

(33) الرعد : 17 .
(34) البقرة : 19 .
(35) النور : 40 .

الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا » (36) تصوير واضح وميسر لكل فهم مهما تبلد في عرض يبلغ البشر مفهوم الحياة وحقيقة الدنيا وحتمية المصير من غير أن يغفل جانبا مهما ، وهو البلد الطيب والبلد الخبيث وما ينبت كل منهما .

وجاء تشبيه أصحاب رسول الله بالزرع المشطء في سورة الفتح (37) وتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة في سورة ابراهيم (38) كما يشبه انفاق المومن بالحبة التي تنبت سبع سنابل في سورة البقرة (39) وبالحبة التي توتي أكلها ضعفين في نفس السورة الآية 265 ، وانفاق المرء الذي أصابه البطر بالحبة التي أصابها الاعصار فاحترقت وذلك في نفس السورة الآية 266 ، وشبه هذا الانفاق ايضا بالصفوان الذي أصابه الوابل فتركه صلدا اذ عراه فظهر على حقيقته في نفس السورة الآية 264 ، وهذه ثلاث آيات متلاحقات تبرز الاولى صورة مشرقة للمومن والاخريان تعرض نموذجا حيا للمنافق والكافر .

والمنافق والكافر عنصران متلازمان كلما وجدت الدعوة الى الله ، ولبيان سلبية هذه الفئات وبطلان أعمالها فان أمثال القرءان لم تغفلهما وذلك حين شبهت المنافقين بالخشب المسندة التي لا فائدة فيها ، في سورة المنافقين الآية 4 .

ج ـ الجماد :

الجماد جزء من الطبيعة كان ترابا أو حجرا او رمادا او غير ذلك ، وتحريك الجماد كما يتحرك الانسان للدلالة على المعاني وتقريبها الى الاذهان عن طريق القياس ــ يهدف تزكية الهدى ودحض الكفر والضلال ــ من المعجزات التي يختص بها التعبير القرآني ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرءان على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال

---

(36) الاعراف : 57 ـ 58 .
(37) الآية : 29 .
(38) الآيتان : 24 و 25 .
(39) الآية : 273 .

نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (40) وبالمقابل : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار » (41) وان مجرد تصور جبل يهبط من خشية الله كاف لتصور قساوة قلوب الكافرين والمنافقين ، هذه القساوة الشديدة التي فاقت قساوة الحجارة ، لان من الحجارة ما يتفجر منه الماء فيكون فيه نفع ، واما أولئك فلا نفع من ورائهم ابدا . وكذلك أعمالهم فهي هباء لا يقدرون منها على شيء وباطلة محبطة بكفرهم ، ولذلك مثل لهم القرءان بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف (42) .

وانفاقهم في هذه الحياة مثله ، « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا انفسهم » (43) واذا كانت الريح ليست جمادا او انها هي شيء آخر نظرا لاننا نحس بها ولا نستطيع لمسها ولا ايقاف زحفها ، فقد استعملها المثل القرآني الى جانب الرماد الذي هو في حالة تبدده لا يمكن جمعه ولا امساكه ، وهنا تكمن الخاصية التي يمتاز بها المثل القرآني في تفرده بهذا التعبير ، وبتحريك هذه الجماعات والاشياء لتكون أداة لتقريب الصور والمعاني التي يقصدها القرءان الكريم من أجل تثبيت المومن وزحزحة الكافر من مكانه ، ووضعه على شفا جرف هار يسقط به في نار جهنم ان تمادى في كفره وعتوه وضلاله .

وقد وصلت الحفاوة بمشاهد الطبيعة في القرءان وفي امثاله الى حد « استخدامها في مجال التنزيه المطلق والتجريد الكامل » (44) وذلك لتصوير نور الايمان وتبديد ظلام الجهل والكفر في قلب المومن ، فيضيئه بالثقة والاعتزاز ويثبته على مبدأ التوحيد ويدفعه الى التضحية من أجله : « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس ، والله بكل شيء عليم » (45) .

---

(40) الحشر : 21 .
(41) البقرة : 74 .
(42) ابراهيم : 18 .
(43) آل عمران : 117 .
(44) منهج الفن الاسلامي ص : 277 .
(45) النور : 35 .

د ـ الحيـــــــوان :

والحيوان من بيئة الانسان فهو مسخر للانسان كما سخر له الارض والرياح وغيرها لتحقيق ارادة الله في الارض ، ولذلك استعمله المثـــل القرآني استعمالا يحدث في النفس رجة لا يثوب منها الا من مسه تيــار الهدى والايمان ، ويبقى متخبطا فيها من عمى عن الحق ، وتحجر قلبه حتى نزل الى مستوى الحيوان ، بل هو اقل منه . لان الحيـــوان على الاقـــل يؤدي مهمته من طريق الفريزة والالهام .

والحيوان انواع اليف ووحشي ، بري ومائي ، طائــر وزاحـــف ، حشرات وفصائل .

ومن خصائص المثل القرآني أنه استعمل الحيوان للدلالة على ما فيه صفات ومزايا ومضار ، ولكن لايقاظ الحس المتبلد لدى الكافر والمنافق ، والمعطل لاحكام الله .

فقد جاء التمثيل بالعنكبوت للدلالة على ما يعتمد عليه الكـــافر من دون الله (46) وشبه المنسلخ من آيات الله واقباله بلهفـــة على الدنيـــا ومتاعها بالكلب اللاهث (47) ، والمعرض عن ذكر الله وسماع الموعظـــة بالحمر المستنفرة (48) ، والمعطل لاحكام الله بالحمار الـــذي يحمـــل أسفارا (49) ، والمشدودين الى الدنيا شدا وثيقا والضاربين في أعمـــاق الضلالة بالانعام (50) التي لا هم لها سوى الرعي والافراز . وتظل أعناقها ورؤوسها مشدودة الى الارض بحثا عن أكل وشرب .

والتمثيل بهذه الحيوانات والحشرات الحقيرة يناسب مـــا رمـــى القرءان الكريم الى بيانه وتوضيحه مما عليه الكافرون من غباوة وضلال ، وهذه الحيوانات ليست بعيدة عن الانسان فهي موجودة في كل مكان من أرض الله الواسعة .

---

(46) العنكبـــــــوت : 41 .
(47) الاعـــــــــراف : 175 ـ 176 .
(48) المـدثـــــــر : 50 ـ 51 .
(49) الجمعـــــــة : 5 .
(50) الاعـراف : 179 ـ الفرقـان : 44 ـ البقـرة : 171 .

هـ ـ المعتقدات والتقاليد :

المعتقدات جزء من البيئة الاجتماعية ، لانها تظهر ما عليه هذه البيئة من سلامة الفكر او فساده بخصوص العقيدة ، ولم تغفل الامثال القرآنية هذا الجانب ، لان المعتقدات جزء من الانسان ماضيه وحاضره ومستقبله فهي اما صالحة او فاسدة .

ومن خصائص المثل القرآني ومميزاته أنه استعمل المعتقدات الفاسدة مشبها ومشبها به في آن واحد وهذا منتهى البلاغة والاعجاز ، قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » (51) .

فالعرب كانوا يخشون الشياطين ومسها معروف بينهم ، كما هو معروف في جميع الامم والشعوب الى يوم الناس هذا وغدا الى يوم القيامة ، ومن ثم كان المثل القرآني صالحا لكل عصر وجيل ، ولكن من يتدبر هذه الامثال ويشرحها للناس ؟

والتقاليد هي ما الفه الناس وتواضعوا عليه وسلموا به بينهم في أية بيئة او مجتمع كان . ونجد في الامثال القرآنية مثلا يشير الى هذه التقاليد وهي توثيق العهود ، وهي عرف له قوة القاعدة القانونية بلغة العصر ، كان جاريا في البيئة العربية وغيرها ، وهو اليوم قانون قائم بذاته على أساسه يقع التعامل بين الناس افرادا وجماعات ودولا ، ولم يغفل القرءان هذا الجانب من حياة الفرد والجماعة ، ولذلك ركز المثل القرآني للتشهير بمن يخون هذه العهود والمواثيق او ينقضها لان نقضها ينتج عنه اختلال في المعاملات وغيرها ، فعمد المثل القرآني الى تشويه هذا الامر وتقبيحه للنفوس .

قال الله تعالى : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » (52) .

---

(51) البقرة : 275 ـ والانعام : 71 .
(52) سورة النحل : 91 ـ 92 .

ز ـ الانســــــان :

الانسان هو محور الحياة على هذه الارض ، ولذلك اليه توجه الدعوة لانه هو الذي تحمل الامانة واستلمها من الله عز وجل لخلافته في الارض ، والى هذا الانسان تسخر هذه المخلوقات جميعها ، ومن هذا الانسان نجد الضال والمهتدي ، المشرك والمنافق .

والامثال القرآنية اهتمت بهذا الانسان واستعملته هو نفسه مثــلا ليتيقن ان الحق موجود وفعال لما يريد ، وان ما دونه باطل بالاساس .

واذا كانت الامثال القرآنية قد امتازت باستعمال الانســـان فــردا وجماعة واما مثلا فانها امتازت بهذه الخاصية لانها بهذا الاستعمال نفذت الى أعماق الانسان نفسه لتنطلق من ذاته لذاته فيرى الحقيقـــة في نفسه اذا لم يلمسها خارج ذاته وتلك خاصية تنفرد بها أمثال القرءان واحـــدى المميزات التي تجعل المثل القرآني قوي الدلالة على الحق ، والحجة على الباطل : « ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكـــم مـــن شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلـــك نفصل الآيات لقوم يعقلون » (53) .

وما بعد الهـــدى الا الضـــلال .

3) الباعـــث النفســـي :

يختلف التصرف الواعي عند الانسان من شخص لآخر ، وان تطابقت تجاربهما واتحدت معارفهما ، ولذلك نرى ان الشخص يتأثر بالكلمة البسيطة والاشارة الخاطفة بينما آخر عكسه تماما ، ولذلك نجد الامثال القرآنيـــة تراعي في خطابها اختلاف النفسيات والطبائع ، كما تهتم بايقـــاظ النفس لدى كل شخص بما يلائمها وذلك بحسب ما يتطلبه الموقف .

أ ـ مخاطبـــة العقـــل :

ان الحجة لا تقيمها العاطفة وانما يقرها العقل ، والمنطق لا يحـــدد الهوى وانما العقل . ولذلك كان الخطاب في القرءان موجهـــا الـــى ذوي

(53) الـــــــــروم : 28 .

الالباب ،وأرباب العقول والامثال في القرءان لا يعقلها الا العالمـــون (54) ، كما قرر القرءان ذلـــك .

ولهذا نجد المثل القرآني يشير الى هذا العقل ويدفعه الى اصدار الحكم فيما يعرض عليه من الصور والتمثيل ، وبعد التفكير (55) والتدبر في مفزاها ومرماها لاستخلاص العبرة منها واستخلاص الحكم ايضـــا . والعقل هو الذي يتفكر ويتذكر لذلك كان الخطاب في الامثال القرآنية موجها الى العقل بالدرجة الاولى ، فالعقل هو الذي يحرك النفس لانه جزء منها وهو الذي يحرك الحواس لانه المتحكم فيها ومتى كان العقل واعيا أخضع النفس له ، وجعلها تأتمر بأمره وبذلك يكبح جماحها ويحد من غلوائهـــا ، فتلين وتتهذب وتنساق وراءه طيعة آمنة مطمئنة ، لانها وجدت في العقـــل قوة أكبر من نوازعها ودوافعها، اما اذا كان العقل ضعيفا متبلدا او محجرا أو متعنتا غلبت عليه النفس واخضعته لسيطرتها وجمحت بصاحبه جموحا لا حـــد لـــه .

،والمثل القرآني في خطابه يتحدث الى كل صنف بما يناسبه ويؤثر فيه ، وتلك خاصية تمتاز بها أمثال القرءان ولا يقتصر هذا الخطـــاب على جيل بعينه بل الاجيال مهما تلاحقت .

ب ـ التــوجيــــــــــه :

والغاية من المثل كما فصلنا من موضع سابق هي ارشاد الضال الى طريق الهدى واخراجه من الظلمات الى النور ، وهذا هو التوجيـــه الذي اعتمدته الامثال القرآنية ، بحيث لا تخرج الفرد من الظلمات دفعة واحدة حتى يفقد بصره من جراء اصطدامه بالنور بل تتدرج بالفرد في رفق حتى تخرجه من العتمة ويتعود على الضوء شيئا فشيئا الى ان يجد نفسه فـــي عالم يغمره نور الايمان وقد انسلخ من عالم كانت تفشاه ظلمات بعضها فوق بعض ، لم يكن في عتمتها يرى حتى يده وهي جزء منه يمكنه تحريكها في اي اتجاه الى ان تصل الى عينـــه .

---

(54) انظـــر الآيـــة : 43 من سورة العنكبـوت .
(55) انظـــر الآيـــة : 21 من سورة الحشر .

وهذا التوجيه يتسم بطابعين اثنين :

الاول : انه يرمي الى تأكيد وحدة الله والوجود والرسل ، وقد استعملت فيه أمثال انطلقت من نفس الانسان وانتهت الى ما يحيط به من كائنات ، كان التمثيل بها ينزع كل ريبة من النفس .

الثاني : تطويق النفس بالصور المختلفة ، ومحاصرتها بالمآذج المتحركة في كل شيء ليتبين لها الرشد من الغي ، والغاية من ذلك تخليصها من سلطات النزوة وجبروت الهوى ، ونزغ الشيطان .

فالامثال القرآنية تهدف في توجيهها الى خلق عالم نوراني للنفس يشع بعقيدة التوحيد ، ويتمتع بنعم الله في دائرة المشروعية داخل عالم متماسك متحاب متضامن ، تسوده الاخلاق الفاضلة والتوادد والرحمة ، ولذلك نجدها في توجيهها حريصة على تربية الفرد قائمة على الممارسة .

ج ـ الترغيب والتحذير :

ومن الوسائل التي تتأثر بها النفس الترغيب والترهيب ، ولكنني اخترت التحذير على الترهيب لانني لم أجد في الامثال القرآنية هذا الترهيب الذي يعتمد التخويف وانما هو تحذير يدفع الضمير الى الاستيقاظ .

فالنماذج الترغيبية التي قدمتها أمثال القرءان تلمس فيها الوضوح والواقعية وتراها رأي العين فلا يداخلك شك فيها كانفاق المؤمن مثلا يقدمه المثل القرآني تقديما منطقيا فهو : « كحبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » (56) ، هذه العملية المتلاحقة التي تبدأ من بذر الحبة الى ان تستوى السنابل وتنضج حبوبها . وعملية الاحصاء هنا ليست مقصودة لذاتها وانما لتدل على الكثرة الناتجة عن القلة ، هذه القلة التي هي الانفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته ـ كيف تصبح كثرة ... سبعمائة حبة وأكثر ـ لان التربة التي غرست فيها جيدة الاخصاب ، وهذا الترغيب في الامثال القرآنية القائم على الحقيقة والى دفع النفس اليه دفعا اختياريا لا تحس معه انها مجبرة عليه او متذمرة من نتائجه ، وهذا الترغيب عندي يقابله التنوير ، لان دفع النفس الى سلوك

---

(56) البقرة : 261 .

ما انما هو تنوير سبيل ذلك السلوك امامها حتى لا تتعثر ولا تتأخـــر في الاقـــدام عليـــه .

وبالمقابل هنالك التحذير ، والتحذير هو أشد من الترهيب وان كان الطف منه ، فالترهيب يقوم على التخويف المباشر وفي الامثال القرآنية ليس هناك تخويف مباشر بل هناك تحذير غير مباشر لمن يسلك طريـــق الضلال ، ولكنه تحذير عن طريق المقابلة والقياس بين صورتين متباينتين تعطي للعقل والنفس معها فرصة التمعن فيها فيخلق من جراء ذلك صراع بين العقل والنفس فاذا تغلب العقل كان التحذير قد ادى الغاية منه وخرج صاحب هذا الصراع بنور الايمان ، واذا تغلبت النفس الامارة بالسوء ، بقي التحذير قائما وعاقبته ملزمة لمن خضع لاهواء نفسه ولم يخضع لنداء عقله.

وهذه خاصية تنفرد بها امثال القرءان لانها اسلوب مقيم في معالجـة النفس مهما كان موقعها .

د ـ المواجهـــة غيـــر المباشرة :

ان اي انسان مهما كانت درجة وعيه اذا واجهته بعيوبه تدفعـــه الى الانفجار ضدك وتسليط نقمته عليك لانك ضربت على الوتـــر الحساس في اعماقه ضربا عنيفا ، وبطبيعة الحال فان النتيجة الحتمية عن هذه المواجهة تكون عواقبها غير محمودة لدى الطرفين .

وقد امتازت أمثال القرءان بعلاج النفس المريضة والجامحة والمغرقة في الكفر علاجا يعتمد على اثارة هذه النفس من الداخل بحيث لا تصطدم بالمواجهة الخارجية المباشرة ، فهي تقدم نماذج هذه النفوس المريضـــة بنماذج خارجية هي التي تتعرف فيها ، ومن ثم كانت الحكمة في الامثـــال القرآنية بليغة جدا ، وكانت الحجة فيها قائمة الى يوم البعث ، ولانهـــا لا تعتمد على الاقناع العقلي وحده ، بل تنفذ الى الوجدان والبصيرة فتحدث فيهما هزة لا يسعهما التخلص منها الا بالاذعان او التمادي في العمى .

فالمشرك الذي رسخ في نفسه الاعتقاد بأن وليه صنما او غيره قادر على اعانته ونفعه عندما تواجهه بفساد عقله وغبائه ، وتحمل عليه حملـــة عشواء لتسفيهه تزيده تشبثا باعتقاده ونفورا مما تدعوه اليه ، وتحفر بينك

وبينه خندقا سحيقا لا تثبت عليه اي قنطرة ، ولكن عندما تجعل وليه عاجزا عن تحقيق تلك الاعانة والمنفعة بطريقة غير مباشرة ، وذلك بأن تجعل هذا المشرك يقف على حقيقة مسلمة ، من ان هذا الولي لا يستطيع خلق ذبابة ولو اجتمع معه أولياء آخرون ولا يستطيع استنفاذ ما تسلبه الذبابـــة ، تهز نفس هذا المشرك هزا عنيفا في أعماقه فيتحرك عقله ليقر بضعـــف الطالب والمطلوب .

هذه المواجهة غير المباشرة في الامثال القرآنية هي العلاج النفسي الذي قدمته لمرضى العقول والنفوس من المشركين والمنافقين ، وهـــي القنطرة التي مدتها امامهم ليعبر عليها التائب الى رشده من جحيم الضلال الى نعم الهدى والايمان .

هـ ـ تقديـــم العبـــرة :

العبرة هي نتيجة عملية التقابل التي يقوم بها الشخص الذي تضـــع أمامه حالتين متضادتين أو تعرض عليه ملابسات حالة ما ونتائجها فتتضح العبـــرة أمامـــــه .

والعبرة نستقيها من الحدث تاريخيا كان او اجتماعيا ، وامثال القرآن قدمت هذه العبرة في قالبها التاريخي وشكلها الاجتماعي بل وجعلت العبرة تنطلق من الشخص نفسه كما حدث للمنسلخ عن آيات الله (57) ولاصحاب الجنة (58) ولصاحب الجنة (59) الذي أصبح يقلب كفيه على ما انفـــق فيها ، والحيران في الارض (60) ، والذي يتخبطه الشيطان من المس (61).

وتقديم العبرة من أمثال القرءان يتجه الى النفس اتجاها غير مباشر ليجعلها أمام النتيجة الحتمية ، ويدفعها الى اتخاذ موقف ، هذا التقديـــم للعبرة من خصائص التربية النفسية في المثل القرآني ، لان طريقته تعتمد على حث العقل واستنفاره ، وتهيء النفس لاتخاذ القرار بعـــد اجتيـــاز

---

(57) الاعــــــراف : 175 .
(58) الكهـــــــف : 34 .
(59) الكهـــــــف : 42 .
(60) الانعـــــام : 71 .
(61) البقـــــرة : 275 .

المراحل والوقوف على النتيجة ، كل هذا في لحظات معدودات يتعبأ فيها كل من العقل والنفس والوجدان .

و ـ قــوة التاثيــر :

لقد تعرض المثل القرآني ظاهره وكامنــه لكــل مــا يعتلج في النفس الانسانية من نوازع نحو الحب والبغض ، والغضب والطمانينــة ، الرضا والحزن ، الظلم والعدل ، الكرم والبخل ، الشجاعــة والجبــن ، الشرف والذل ، الصدق والنفاق ، العفة والهوى ، الخير والشر ، العفو والسخط ، الثبات والخذلان ، الوفاء بالعهد ونقضه ، السعــي والكسل ، التعقل والتهور ، الذكاء والبلادة ، التواضع والغرور ، الشكــر والبطــر الايمان والكفر ، الاحسان والمكر وغيرهــا .

وما ان يلمس احدى هذه النوازع حتى يكون لتياره مفعول قوي في النفس فيهزها من الاعماق هزا لينا وعنيفا حسبما تقتضيه القضية النــي جسمهــا المثــل .

ويستمد المثل القرآني قوة التأثير هذه من معرفة الله عز وجــل بخبايا نفوس عباده ، وما تكنه صدورهم ، من هنا كانت الصور واضحــة والعبارات بسيطة ، ومن هذا الوضوح وتلك البساطة تكونت قوة التاثيــر التي يمتاز بها المثل القرآني .

وهذا هو القرءان يصف قوة تأثيره في نفوس المومنين به . ونفوس الذين أوتوا العلم من قبله بأنه : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (62) .

« اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » (63) ويصــف قوة تأثيره في الكافرين الذين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بهذه القــوة التي دفعتهم الى القول : « ان هذا الا سحر يوثر » (64) ويقررون نتيجة

---

(62) الـزمــــــر : 23 .
(63) الاســــــراء : 109 .
(64) المدثـــــــر : 24 .

لذلك : « لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون » (65) لانهم لم يقدروا على الثبات امامه وحالت نفوسهم وأهواؤهم بين عقولهم وقلوبهم فلجوا في عتو ونفور .

وهذا أكبر دليل على قوة هذا التأثير وعلى عمقه ، وعلى سريان مفعوله آمن الفريق او كفر .

وهذه القوة تكمن في كل مثل ، وتتفاوت درجاتها من مثل الى غيره ، بحسب الموضوع الذي يعالجه المثل أو المشكل الذي يجسده ويحدد حله . وهي قوة كالمغناطيس تجذب قوته اليه كل مادة تتجانس معه ، وهذا التجانس بين الصورة المعروضة والطريقة العلاجية هي التي تشكل قوة التأثير في المثل القرآني الذي تنجذب اليه كل النفوس لانه متجانس معها .

ز ـ حرية الاختيار :

ان الحرية هي أساس التعامل المثمر والتعاون البناء ، فالشيء المفروض مثله كمثل الزبد لا يلبث ان يذهب جفاء ، والشيء الذي يختاره عن وعي وقناعة وبحرية يجعله سجين هذا الاختيار وملتزما به ، ومدافعا عنه الى آخر رمق .

وهذه القناعة لا تتكون الا اذا كان الانسان حرا في دائرة اختياره وحرية الانسان نسبية ، لانه ليس له اختيار الا ما هو في دائرته التي وجد فيها ، فاما أن يعتم هذه الدائرة فيسجن نفسه في ظلام حالك ، واما أن يثيرها ليملأ نورها نفسه ويتسع على من حوله ، ولكن ليس للانسان حرية اختيار فيما يقع خارجا عن ارادته .

وفي دائرة هذه الارادة للانسان مطلق الحرية في تصرفاته وقراراته وهو مسؤول عنها سواء امام نفسه ، أو امام رؤسائه او امام الناس ، او امام الله سواء كان مومنا او كافرا .

---

(65) فصلت : 26 .

ولما كانت أمثال القرءان تتعرض لقضايا الانسان بصفة عامة فيما يخص معتقداته ، وحياته وسلوكه ومصيره ، فان هذه القضايا لا تخرج عن دائرة ارادة الانسان ، ولذلك نجد الامثال القرآنية تجعل بين يدي هذا الانسان من اي موقع كان صورا متباينة ومضادة لمختلف النماذج وتترك له كامل الحرية في اختيار الاتجاه الذي يريد لا تكرهه على أمر وانما ترغبه فيه برفق ، أو تنفره منه بوعي . وهو حسب استعداده وقناعته يسير في الخط الذي ارتضاه لنفسه متحملا كامل مسؤولية فيما يخص نتائج أو عواقب هذا الاختيار .